نشأة كلمة صوفى ومتصوف
وأصلهما
للأستاذ الجليل الشيخ مصطفى عبد الرازق

— ١ — كان الأقبال على الدين والزهد فى الدنيا غالبا على المسلمين فى صدر الأسلام ، فلم يكونوا فى حاجة إلى وصف يمتاز به أهل التقى والعكوف على الطاعات والانقطاع إلى الله ، ولم يتسم أفاضلهم فى الجيل الأول بتسمية سوى صحبة رسول الله ، إذ لا أفضلية فوقها ، فقيل لهم الصحابة ، ولما أدركهم أهل الجيل الثانى سمى من صحب الصحابة بالتابعين

فلما فشا الأقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة المتاع الدنيوى قيل للخواص ممن لهم شدة عناية بأمر الدين الزهاد والعباد ثم ظهرت الفرق الأسلامية فادعى كل فريق أن فيهم زهادا وعبادا ، هنا لك انفرد خواص أهل السنة المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة ، واشتهر هذا الاسم قبل المائتين الهجرة ، فهو اسم محدث بعد عهد الصحابة والتابعين . و يقول بعض العلماء : إن هذا الاسم معروف فى الملة الأسلامية من قبل ذلك ، بل يذهب بعضهم إلى أنه لفظ جاهلى عرفته العرب قبل ظهور الأسلام قال أبو نصر عبد الله بن على السراج الطوسى المتوفى سنة ٣٧٨ هـ — ٩٨٨ م فى كتاب « اللمع » فى التصوف « وأما قول القائل إنه اسم محدث أحدثه البغداديون فمحال ، لأنه فى وقت الحسن البصرى المتوفى سنة ١١٠ هـ كان يعرف هذا الأسم وكان الحسن قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم وقد روى عنه أنه قال : رأيت صوفيا فى الطواف فأعطيته شيئا فلم يأخذه وقال : معى أربعة دوانيق فيكفينى مامعى .

وروى عن سفيان الثورى رحمه الله (المتوفى سنة ١٦١ هـ) أنه قال : لولا

أبو هاشم الصوفى ما عرفت دقيـــق الرياء (وأبو هاشم الصوفى توفى سنة ١٠٥ وقيل إنه أول من سمى بالصوفى) وقد ذكر فى الكتاب الذى جمع أخبار مكة عن محمد بن اسحاق بن يسار « المتوفى سنة ١٥٠ هـ وعن غيره يذكر فيه حديثا : إن قبل الأسلام قد خلت مكة فى وقت من الأوقات حتى كان لا يطوف بالبيت أحد ، و كان يجىء من بلد بعيد رجل صوفى فيطوف بالبيت وينصرف ، فأن صح ذلك يدل على أن قبل الأسلام كان يعرف هذا الاسم ، وكان ينسب إليه أهل الفضل والصلاح والله أعلم »

فاستعمال لفظ صوفى ومتصوف لم ينتشر فى الأسلام إلا بعد عهد الصحابة والتابعين . وسواء أكان هذا التعبير عن الزاهد بالصوفى حدث فى أثناء المائة الثانية كما هو رأى ابن خلدون (المتوفى سنة ٨٠٦ هـ سنة ١٤٠٦ م) فى مقدمته ، ورأى ابن تيمية (المتوفى سنة ٧٢٨ هـ — ١٣٢٧ م) فيما نقله عنه صاحب كتاب « جلاء العينين فى محاكمة الأحمدين » أم كان هـذا التعبير معروفا فى الأسلام قبل القرن الثانى أم كان لفظا جاهليا على ماذكره صاحب « اللمع » الذى يحاول أن يبرىء الصوفية من انتحال اسم مبتدع لم يعرفه الصحابة ولا التابعون

أما الأستاذ لوى ماسينيون فيقول فى كتابه : « مجموع نصوص لم يسبق نشرها متعلقة بتاريخ التصوف فى بلاد الأسلام » المطبوع فى ســـنة ١٩٢٩ بباريس ، عند كلامه على عبدك الصوفى المتوفى حوالى سنة ٢١٠ هـ - ٨٢٥ م : « صاحب عزلة بغدادى وهو أول من لقب بالصوفى ، وكان هذا اللفظ يومئذ يدل على بعض زهاد الشيعة بالكوفة وعلى رهط من الثائرين بالأسكندرية وقد يعد فى الزنادقة بسبب امتناعه عن أكل اللحم » ويريد الأستاذ أول من لقب بالصوفى فى بغداد كما يؤخذ مما نقله فى نفس الكتاب عن الهمذانى ونصه : « ولم يكن السالكون لطريق الله فى الأعصار السالفة والقرون الأول يعرفون باسم التصوف ، وإنما الصوفى لفظ اشتهر فى القرن الثالث

وأول من سمي ببغداد بهذا الاسم « عبدك » الصوفى وهو من كبار المشايخ

وقدمائهم ، وكان قبل بشر بن الحارث الحافى (المتوفى سنة ٢٢٧ هـ) والسرى بن المفلس السقطى ، المتوفى سنة ٢٥٣ »

— ٢ — أما أصل هذا التعبير فالأقاويل فيه كثيرة : فمن مرجح أنه لفظ جامد غير مشتق كالقشيرى « المتوفى سنة ٤٦٥ » وقد جاء فى « الرسالة مع شرحها » لشيخ الأســـلام زكريا الأنصارى المتوفى سنة ٩٢٦ هـ — ١٥١٩ م » : (وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس بين ولا اشتقاق كذلك ، لأن مصدر « صفا » صفو بتأخير حرف العلة عن الفاء . والأظهر فيه أنه غير مشتق بل هو جامد كاللقب) ومن قائل إنه مشتق من (الصفاء أو الصفو) والمراد صفو قلوب أهل التصوف وانشراح صدورهم ورضاهم بما يجريه الله عليهم ، ثم إنهم مع الله فى صفاء لا يشوبه شاغل . وهم بما أطلعهم الله عليه قد صفوا من كدر الجهل قالوا : وكان فى الأصل (صفوى) فاستثقل ذلك فقيل « صوفى » ومن قائل : إن اللفظ مأخوذ من « الصوف » لأن لباس الصوف كان يكثر فى الزهاد ، قال صاحب « اللمع » : فلما أضفتهم إلى ظاهر اللبسة كان ذلك اسما مجملا عاما مخبرا عن جميع العلوم والأعمال والأخلاق والأحوال الشريفة المحمودة

« ألا ترى أن الله تعالى ذكر طائفة من خواص أصحاب عيسى عليه السلام فنسبهم إلى ظاهر اللبسة فقال عز وجل : « وإذ قال الحواريون » الآية . وكانوا قوما يلبسون البياض فنسبهم الله تعالى إلى ذلك ولم ينسبهم إلى نوع من العلوم والأعمال والأحوال التى كانوا بها مترسمين ، فكذلك الصوفية عندى والله أعلم نسبوا إلى ظاهر اللباس ولم ينسبوا إلى نوع من أنواع العلوم والأحوال التى هم بها مترسمون . لأن لبس الصوف كان دأب الأنبياء عليهم السلام والصديقين وشعار المساكين المتنسكين »

وقيل فى تسمية أصحاب عيسى عليه السلام بالحواريين . إنهم كانوا قصارين يغسلون الثياب أى يحورونها . وهو التبييض

وقال قائلون : إن الصوفية نسبة إلى الصفة التى ينسب إليها كثـــير من الصحابة فيقال : أهل الصفة ـــ وأهل الصفة هم زهاد من مهاجرى الصحابة فقراء غرباء كانوا سبعين و يقلون حينا و يكثرون لامسكن لهم ولا مال و لا ولد يسكنون صفة المسجد . وهو موضع مظلل فى مسجد المدينة . وكانوا ينتظرون من يتصدق عليهم بشىء يأكلونه و يلبسونه . لكن النسبة إلى الصفة لا تجىء على الصوفى . بل على الصفى

وثم أقوال ضعيفة أخر كالقول بأن الصوفى نسبة إلى الصف الأول ، لأنهم فى الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة والمناجاة وارتفاع الهمة مع الله تعالى والقرب منه . أو لأنهم كانوا أسرع الناس إلى الصف الأول فى المساجد عند الصلاة . و كالقول بأنهم منسوبون إلى صوفة القفا ، أى مايتدلى فى نقرة القفا من شعر يرسلونه متلبداً مشعثا كالصوف

أو منسبون إلى صوفة بن مروان بن أد بن طابخة هكذا جاء فى كتاب « جلاء العينين » والذى فى القاموس وشرحـــه والكسان : وصوفة أبو حى من مضر وهو الغوث بن مر بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر . كانوا يخدمون الكعبة فى الجاهليـة و يجيزون الحـاج أى يفيضون بهم ، وكانت العرب إذا حجت وحضرت عرفة لاتدفع منها حتى يدفع منها صوفة . وسمى الغوث بصوفة لأن أمه جعلت فى رأسه صوفة . وجعلته ربيطا للكعبة يخدمها

وأرجح الأقوال وأقربها إلى العقل : مذهب القائلين بأن الصوفى نسبة إلى الصـوف ، وأن المتصوف مأخوذ منـه أيضا . فيقال تصـوف إذا لبس الصوف . كما يقال تقمص إذا لبس القميص . فلهذا القول وجـــه سائغ فى الاشتقاق . وهو مختار كبار العلماء من الصوفية مثل : صاحب « اللمع » وشارح « الرسالة القشيرية » .

ومن غيرهم كابن خلدون ، وابن تيمية . وجمهرة الصوفية يميـلون إلى رد اسمهم إلى الصفاء . و إن لم يكن لذلك وجه ظاهر فى قواعد اللغة؟ مصطفى عبد الرازق